بنـــــاء المكـــــان المفتـــوح
في رواية" طوق الياسمين"
لواسيني الأعرج

الدكتورة: نصيرة زوزو
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

ستحاول هذه الدراسة الإحاطة بأحد العناصر الفنية الأكثر تميزا وحضورا في أي عمل روائي وهوالفضاء الجغرافي أو المكان، وهو المصطلح الشائع في الدراسات النقدية العربية، والذي سنعمل على الكشف عن طريقة بنائه في إحدى أعمال الروائي الجزائري واسيني الأعرج؛ بغية الخروج بنتيجة تتعلق بطرق اشتغال هذا المكون في هذا النص الإبداعي، وسنعمل في البدء على تحديد مفهومه.

1– مفهوم المكان وأهميته:

يعد المكان العنصر الرئيس المشكل لبنية الفضاء الروائي؛ باعتباره بنية معمارية متجسدة بوساطة اللغة، التي تتفنن في رسم عوالم مكانية متنوعة؛ أي إننا سنشير بهذا المصطلح إلى مجموع العناصر المكانية بما هي أشكال طوبوغرافية وأعلام جغرافية مرجعية أو تخييلية، تدور فيها أحداث القصة المتخيلة، وتضطرب داخلها الشخصيات وتتفاعل فيما بينها.

أي إن المقصود بالمكان هنا هو« المكان اللفظي المتخيل؛ أي المكان الذي صنعته اللغة انصياعا لأغراض التخييل الروائي وحاجاته».[1]

ولا يمكن مطلقا تصور رواية دون تحديد إحداثياتها المكانية، ولعلنا نشبه المكان هنا بالخشبة المسرحية التي تتجه صوبها العيون النظارة، ففيها تتجلى الأحداث وتنطلق، وعليها يتكئ الشخوص للتفاعل في إطار زماني يتكفل صاحب العمل بتحديده.

ولهذا السبب يصرح خالد حسين حسين بأن« الفضاء بمعنى الأمكنة المتواجدة على الشريط اللغوي، التي تعد ساحة صراع للقوى النصية، هو الذي يشكل بؤرة للقراءة وموضوعها وهدفها في الاستنطاق والتأويل».[2]

ولا شك أن للمكان الحظوة عند مبدعينا الأوائل منذ العصر الجاهلي، ويكفينا العودة إلى المقدمات الطللية في شعرنا القديم، أو التفنن في تصوير الطبيعة بكل ما تزخر به من عناصر الجمال.

إن الوقوف على الأطلال دليل صريح على إحساس صادق بالحياة، مع وعي عميق بالوشائج الإنسانية التي تربط الإنسان بكل ما يحيط به من بشر وأشياء. [3]

لقد كان تأثير البيئة عظيما على حياة العربي، إذ أثرت على مشاعره ووجدانه وأفكاره، كما فرضت عليه حياة خاصة، فكان متأثرا ومنفعلا بها، وعنها يصدر في كل شيء أينما توجه.[4]

وليس ههنا مقام تفصيل الحديث عن الأهمية التي اكتساها المكان في نصوصنا القديمة، والحال أن اهتمامنا الأوحد سينصب على استجلاء أهمية هذا المكون في السرد الروائي، خصوصا مع تطور التقنيات الحداثية للرواية، إذ أضحى المكان عنصرا حكائيا متميزا لا يمكن إغفال دوره الكبير في لم وشائج العناصر الفنية الأخرى المكونة لجنس الرواية.

ولهذا السبب اعتبر مرشد أحمد المكان« العمود الفقري الذي يربط أجزاء النص الروائي ببعضها البعض، وهو الذي يسم الأشخاص والأحداث الروائية في العمق ويدل عليها».[5]

والمكان لبنة حيوية في جسد الفضاء الروائي، وتجسيده ضمن صفحات العمل السردي يعطي لأحداث القصة المتخيلة واقعيتها، فتبدو للقارئ شيئا محتمل الوقوع[6]، ومثل هذا الأمر أقرّ به كثير من الباحثين الغربيين أمثال هنري متران، وشارل كريفل، وجيرار جنيت.

2- تجلي المكان المفتوح في رواية" طوق الياسمين":

تخوض رواية طوق الياسمين" رسائل في الشوق والصبابة والحنين" في عوالم ومستويات عدة، فهي مبنية على لغة شعرية غاية في شاعريتها وانثيالها، وصدق مشاعر

كاتبها، وقدرتها على تجسيد التجربة الإنسانية في مختلف لحظاتها، وهي من جهة أخرى في أجزاء منها تقول بجملة صوفية مصفاة كالبلور خصوصاً في مذكرات" عيد عشاب"، وهي إلى جانب هذا وذاك، تقدم وصفاً ساحراً لأجواء دمشق الستينات، دمشق المدينة، والشارع، والسوق، ودمشق الجامعة، والبشر، والدراسة، والثقافة، واليسار، والسياسة، ودمشق الوجع، والفقر، والحرقة، والفراق، والضياع. وهذا الجزء الأخير يأتي في لغة واقعية تقطر ببساطتها وملامستها الواقع وتجسيدها لكل البيئة الدمشقية. من هنا نفهم الحضور الكتميز للمكان فيها ورغبتنا في الكشف عن دلالاته.

تتكون رواية" طوق الياسمين" من أربعة فصول معنونة كما يأتي: سحر الكتابة، والطفلة والمدينة، وبداية التحول، ومسالك النور. هذه الفصول مجتمعة تقول ذكريات الكاتب وعوالمه وعلاقاته مع مجموعة من الشباب الجزائري، الذين قصدوا جامعة دمشق للدراسة، ونيل الشهادات العليا، في بداية الستينات من القرن الماضي. ولكن بعد عمر من الندم والوجع والوحشة، يعود واسيني إلى دمشق ليقف على أنقاض علاقته مع مريم. تزخر هذه الرواية بكم وفير من الامكنة التي تحيل إلى واقع مرجعي يبرز بدقة ضمن أمكنتها ككل. وسنحاول فيما يلي الوقوف عند احد أصنافها وهي الأمكنة المفتوحة.

ويعتبر هذا النوع من الأفضية أمكنة عامة يمتلك كل واحد حق ارتيادها، وتُعد فسحة هامة تسنح للناس بالالتقاء والتواصل، كما تسمح بالحركة والتفاعل والنمو داخل النص الروائي.(7)

لهذا النمط من الأمكنة أهمية بالغة؛ باعتبار أنه سيمدنا بمعلومات وفيرة، وتصورات متعددة تكفل الإمساك بحقيقة الأفضية المتموضعة على الخارطة الروائية وقيمها ودلالاتها.(8)

وسنقف ونحن ندرس طرائق اشتغال هذه الأفضية عند أمكنة السير ووسائل تنقلاتها؛ باعتبار أن هذه الرواية تعتمد اعتمادا كليا على التنقلات المكانية، وتعد الأمكنة بشتى صنوفها هاجسها الأوحد.

تشكل أماكن الانتقال بوسائلها المختلفة الروح النابضة للحياة البشرية، ففيها يلتقي الناس ويتفاعلون ويتحاورون، ويقضون حوائجهم اليومية، للعودة إلى مواطن سكناهم الأولى المغلقة عادة(البيت).

وتقدم أمكنة التنقل بوسائلها المختلفة« للإنسان جزءا من تداعيات التفاعل ومضاته التي تحرك الأحداث ونموها تحت نسيج من العلاقات الاجتماعية سواء أكان في أثناء الركوب بوساطة الحافلات أو السيارات أو العربات التي تقودها الخيول أو الحمير أم السير على الأقدام».[9]

ولمثل هذه الأمكنة في روايتنا دور عظيم؛ لأنها الواسطة التي تنقل الشخوص من ضفة إلى أخرى، وبالتالي تسهم في نمو الأحداث وتطورها، وتعطي للرواية قيمتها الحقة. وسنحاول تجزئة هذا النوع من الأفضية إلى:

2- 1- الأحياء والشوارع والطرقات ووسائل تنقلاتهم:

تعد الشوارع والأحياء« أماكن انتقال ومرور نموذجية، فهي التي ستشهد حركة الشخصيات وتشكل مسرحا لغدوها ورواحها عندما تغادر أماكن إقامتها أو عملها»[10]

وإذا كنا قد أشرنا سابقا إلى أن الرواية موضوع الدراسة تقوم أحداثها على الانتقالات المكانية بشكل مفرط، فإننا سنفهم الدور العظيم الذي يكتسيه هذا النوع من الأمكنة المفتوحة بوسائل تنقلاته المختلفة خلالها.

ويعتبر الحي أكثر الأمكنة حضورا في روايتنا، وهو من« أمكنة المجمعات السكنية(..) ولعل الحي من أكثر أسماء الأمكنة العربية التي تشير إلى معنى الحياة وحركتها الدائبة».[11]

ولفظة(الحي) في اللغة مأخوذة من الحياة[12]، وأمر طبيعي إذن أن تحمل هذه الكلمة دلالة الحركية والنشاط الدؤوب، خصوصا أنها أمكنة آهلة بالسكان، تشهد حركة الكبار وضجيج الصغار خاصة.

وهذا ما يطبع حي سوق ساروجا أول مكان مرجعي يصادفنا في رواية" طوق الياسمين". يقول البطل متحدثا من على نافذة بيته عن مريم التي فارقت المنزل منذ لحظات:« عندما فتحت النافذة(..) لم تبق إلاّ كرات الثلج التي كانت تتراقص في الفضاء والأطفال الذين لم يتوقفوا عن اللعب وصرخاتهم وأحلام مريم التي كانت تملأ حي سوق ساروجا».[13]

تلف مسحة الحزن" حي الزاوية" الذي يخبرنا عنه عيد عشاب، وعن والده قائلا:« رأيتُ والدي الذي نسيني في هذا الفقر، وهو يركض نحو السواد، تاركا وراءه

امرأة طيبة تنتظر يوميا عودته على الحافلة الفاصلة في حي الزاوية في مدينة تبسة بين المقبرة والمدينة حتى صارت مثل السراب».[14]

وإذا كان من المفترض أن تذكرنا أحياء الطفولة بالسلام والدفء والسكينة، كيف لا وهي مواطننا الأولى، إلاّ أن اسم هذا الحي ينعش ذاكرة هذه الشخصية باللحظات العصيبة المؤلمة، لحظات الشوق والانتظار.. لحظات الذبول والانكسارات والتشظّي.

تذكر الرواية أيضا اسم حي الإطفائية الذي يقول عنه الراوي– البطل:« كنا مجموعة من طلبة الدراسات العليا يتقاسمون همّا واحدا في فيلا قديمة بحي الإطفائية».[15]

ما يتميز به هذا الحي أنه يقبع من على الضفة الأخرى من أرض الوطن، حي يجمع خليطا من البشر اختاروا أرض الغربة للدراسة، وكابدوا عناء البعد والغربة والعزلة. ومثله حي سوق ساروجا[*] الذي هرب إليه البطل، وقطن بأحد منازله، بعد أن فقد حبيبته مريم. يقول:« تعودتُ بسرعة على حياة حي سوق ساروجا الشعبي بدروبه الضيقة ومسالكه المغطاة التي تشبه الأنفاق القديمة وحمّامه الرئيسي».[16]

يتسم هذا الحي بزيادة كلمة" الشعبي" إليه، ولعله يشعر صاحبه ببعض الألفة والتأقلم السريع، على الرغم من أن إضافة لفظة" الضيق" إليه كما يقول حسن بحراوي تخل« بشروط هندسة المكان في المدار الحضري ويعوقه في تحقيق وظيفته بوصفه فضاء انتقاليا يفترض الرحابة والاتساع».[17]

وإذا كان هذا حال الأحياء في" طوق الياسمين"، فللشارع أيضا دوره العظيم، إذ « يعد من الأماكن الهامة في حياة المدن»[18]، وهو من العناصر البيئية الأكثر اتقادا ضمن الأمكنة العامة المفتوحة.[19]

ولقد عبّر الروائيون العرب عن هذا النوع من الأمكنة وجمالياته، خلال حديثهم عن المدن العربية بوصفه« مسارا وشريانا للمدينة وفي الوقت نفسه المصب الذي يصب فيه الليل والنهار وأشغالهما وتجلياتهما فهو المسار والمصب في آن واحد».[20]

قد تكون أول خصوصية تتبادر إلى الذهن مظهر الشارع المادي المتصل بمعاني الاكتظاظ البشري. يقول عيد عشاب مباشرة بعد خروجه من منزل حبيبته سيلفيا: « خرجتُ بدوري. كان الشارع مثقلا بالبشر. هاتفتُ عاشور وصحراوي وذهبتُ عندهما.

كانا عكري المزاج شربتُ معهما قليلا من(المازوت) المخلوط بالكوكا، وخرجتُ من جديد إلى الشارع(..) ورجعتُ إلى مكاني الطبيعي وراء الستائر في الجانب الخلفي للنافذة المطلة على غرفة سيلفيا».[21]

إذا ما ارتبطت لفظة" الشارع" عادة بدلالات الازدحام والاختلاط والحركة، ولعل هذا ما لمسه عيد عشاب بمجرد خروجه من المنزل، إلاّ أن عباراته التالية تحمل من الخيبة والفراغ والانكفاء على الذات ما يكفيها. لقد خرج إلى الشارع يائسا قانطا بعد أن رفض والد سيلفيا ارتباطه بابنته.

من هنا كان الشارع مكانا للتسكع والتوهان، مكانا للامكان، الذي يتيح لهذه الشخصية الامتلاء بالعالم قبل أن تلج مكانها المغلق" البيت"، وكالعادة دوما(خلف النافذة المطلة على غرفة سيلفيا).

الشارع- إذن- هو الحضن الذي يتلقف هذه الذات المنعزلة، والمنفردة، والضعيفة، والتائهة، والحائرة على الرغم مما يحيطها من أسباب الأنس(مثقلا بالبشر).

إن ما يميز هذا الفضاء هذا الفضاء المفتوح أيضا عدم ذكر اسمه، وقد يكون هذا أمرا طبيعيا في بعض المواطن، حين يُعمد إلى إخفاء أسماء بعض الأماكن؛ باعتبار أن العمل الروائي« نوع من اللعب بين الراوي والقارئ(..) الروائي يقدم أقصى ما لديه من مهارات الكشف والإخفاء، والقارئ يقدم أقصى ما لديه من مهارات الكشف والاستقصاء».[22]

ولربما كان عدم ذكر اسم هذا الشارع أمرا ذا أهمية في هذا المقام؛ إذ إن الهم الأوحد كان منصبا على كشف الحالة النفسية التي تمر بها الشخصية من إحباط وفشل.

يحتاز الشارع أيضا على أهمية إستراتيجية في رواية" طوق الياسمين"، بوصفه من الأمكنة الباعثة على الذكرى، إضافة إلى كشفه عن دينامية المدينة من حيث الحركة والهدوء- كما أشرنا آنفا- والتجول بالشارع أضحى طقسا يوميا يمارسه بطلا الرواية. يقول الراوي البطل:« لقد بدأت رحلة الصباح. الجامعة، البريد المركزي، السينما أو المسرح ثم التسكع في شوارع المدينة قبل أن نندفن في أقرب بار نستدفئ فيه بحرارة البخار وبيرة بردى المحلية».[23]

وترتبط الشوارع باسم امرأة وحيدة سرقت راحة البطل قبل أن تسرقها الحياة.

يقول في حوار له مع مريم:« المدينة جميلة، ماذا لو عبرناها في هذا المساء الجميل

– أريد بالفعل أن أمشي كثيرا؟

– لنمش. اليوم رائق.

كنا نعبر المدينة صامتين. نتدحرج في شوارعها التي لا تنتهي امتداداتها».[24]

يتذكر البطل تجواله بين دروب المدينة رفقة حبيبته مريم وفي إحدى الأمسيات خاصة، وقد مثّلت الشوارع هنا أمكنة عشق وتنزه في صمت وتأمل وتوهان، وسط ديكور منفتح يغري بهذا الزوغان، وتحت سماء رائقة، مع رغبة متأججة في التدحرج بين ثنايا المدينة.

ويذكر البطل في موضع آخر:« وأنا أعبر الشارع الخلفي الذي يمتد من لوكسمبورغ إلى سان ميشال رأيت وجهك هاربا نحو مخابئ الروح(..) هل هناك غيرك في هذه المدينة؟ تركت كل شيء وجئت معك؟ هذا لا يكفيك لتعرف كم أحبك وكم أشتاق إليك حتى وأنت معي. أسمع صوتك. يأتيني نقيا كشمعة».[25]

إذا عبّر الشارع أحيانا عن لحظات العزلة والوحدة والحزن، فإن هذا النوع من الأمكنة يكشف عن لحظات الحب العابرة، ويُجلي بصدق عن نزعته الرومانسية، ووجود المرأة به" مريم هنا" يعطيه نكهته الخاصة وحلاوته المميزة.

وتحضر هذه الصفة في مواطن متعددة من متن الرواية. يقول الراوي– البطل: « كان اليوم ممطرا(..) كنا نتدحرج في الشوارع الخلفية لباب توما حيث محل عمو طوني»[26]

ويضيف في موضع آخر:« كنا ههنا نقف(..) المطر(..)

" خليتك تستناني؟ عذرا حبيبي"

قبلة، ثم نعبر الشارع باتجاه عمق المدينة».[27]

الشوارع في رواية" طوق الياسمين" موضع تجوال، ولا يمكن أن يكون هذا الفضاء الجغرافي في المنقولين السابقين إلاّ مكان عشق أثير، وموضعا لالتقاء العشاق والتنزه بين دروبه[28].

لفظة التنزه التي تدل دلالة صريحة على العشق المتولد في هذه الأمكنة في إطار ما يجمع البطلين من حب. إنه رمز السعادة والغبطة والسرور والنشوة، وما يثيره من ذكرى طقوس الحب ومتعه.

وما قلناه عن الشوارع نسقطه على طرقات هذه المدينة، مواطن اجتماع الحبيبين. يقول الراوي– البطل:« فجأة في الطريق المؤدي إلى شركة الإعلانات، شعرتُ أننا قريبين من بعضنا البعض حد الاندغام».[29]

تلك السعادة التي قد تضمر في بعض الأحيان، ليلفها الأسى والحزن ولوعة العزلة مرة أخرى، لتعبر في حقيقة الأمر على مزاج الشخصية. هي الحالات ذاتها التي كابدها عيد عشاب، والتي تحدثنا عنها سابقا.

وللنظر مثلا إلى قول الراوي عن مريم:« على امتداد الطريق، شاهدتُ ابتسامتك تنزلق وتذوب كقطع الثلج، ثم تتكسر على شفتيك»[30]، أو قوله في موضع آخر:« يا طفلة ساذجة. تتقاتل في دمها الأسئلة القديمة والجديدة وروائح هذه الممرات الضيقة وهذه الطرقات التي يحدث أن تصير فجأة مهجورة، خالية حتى من أنفاس أبسط القطط والمخلوقات الأخرى».[31]

نشهد هنا تحولا كبيرا، فبعد الإحساس الوثير بقرب الأنس" المحبوبة"، سينفرط ذلك الحبل، ويتلاشى بالتدريج، لتلتبس الشخوص حالتي الضيق والوحشة في مواطن يفترض أنها تتقاطر بشرا ورفقة. إنه السكون المطبق والعدم والانتهاء، هو الحزن الذي يجمع مفردات دالّة عليه(تتكسر– ضيقة– مهجورة– خالية).

وإذا ارتبط الشارع في أرض الغربة بلحظات الفرح أحيانا، فإنه يتخذ صورة مخالفة أحيانا أخرى. يقول الراوي:« كانت شوارع المدينة التي بدأنا ننساها الآن. شبيه ممنوعة. تهتز فقط للمارشات العسكرية(..) وأصداء الرصاص وصرخات القتلة والاغتيالات».[32]

يكفهر وجه الشارع هنا وتسيطر عليه علامات الحزن العميق والذعر الشديد، إذ يعلو صوت الموت عاليا مدويا، وينبلج صبح المأساة، ويتحرك طعم اليأس. لقد أفل نجم الهدوء والطمأنينة من بين ثناياه، وحل زمن الصراخات والعويل.

وقد تشكل بعض الشوارع أمكنة عبور فحسب، فهذا شارع الصالحية[33]، كما يُذكر اسم شارع بغداد[34]، المكان الذي قصده الراوي للبحث عن سكن يستأجره.

وقد كان للسيارة بعض الحضور في رواية" طوق الياسمين"، ولعل ما يميزها أنها وسيلة التواصل الرئيسة بين البطلين، بعد أن اختارت البطلة" مريم" حيّا آخر للإقامة

به بعد زواجها من" صالح".

أي إن السيارة هنا كانت المكان المتحرك الذي سيجمع الأجساد المتحابة فيما بعد في الفضاء المغلق" البيت"، وهي بهذا لعبت دور المسرح الذي يساعد على اللقاءات الحميمية الحارّة بين البطلين.(35)

تحضر الباصات" باصات أوتستراد المزة" في رواية" طوق الياسمين" التي تركن بمحطة البرامكة، لتجمع عددا أكبر من الناس، وتتكفل هنا بنقل البطلين إلى الجامعة، وعلى متنها تتواصل القلوب المتحابة بطريقتها الخاصة، وتسرح الذاكرة في خيالاتها لتستعيد لحظات السعادة. يقول البطل:« وداخل الباص المكتظ، تتطلع إلينا العيون بنهم غريب. أبحث عن سبب الدهشة(..) فلا أجد شيئا ذا أهمية غير يدي اليمنى التي تنام على خصرك بارتياح غريب.

أغمض عيني لأراك في الصورة التي تقربني منك أكثر. أتذكر عود النوار. أضحك. أستعيد كلمات هذا الصباح عندما غادرنا السرير المكتظ بحماقات الليلة الفارطة»(36)

وقد تستعيض الشخصيتان بالسيارة في بعض الأحيان، حيث تتكفل في مواضع عديدة بنقلهما إلى الجامعة قبل زواج مريم، وداخلها كانت تمارس البطلة بعض التفاصيل الدقيقة التي لا يتسع لها الوقت. ستكون السيارة هنا كالبيت في بعض ممارساته الخاصة. يقول البطل:« لا تغلقين الحقيبة بإحكام إلاّ داخل التاكسي ولا تضعين الماكياج إلاّ وأنت متكئة على سند السيارة(..) ثم تتغمسين داخل فوضاك، تبحثين عن أحمر الشفاه الذي ينام عادة بين ركام الكتب المتراكمة، الأساور السبع التي اشتريتها لك من حقوق التأليف التي تلقيتها من كتابي الأول»(37)

2- 2- أمكنة مفتوحة مؤقتا:

تدخل الأمكنة المفتوحة مؤقتا في بناء العمل الروائي، وقد أفردنا في عنصر مستقل، لتميزها وتفردها عن الأمكنة المذكورة سابقا، أو التي سنشير إليها لاحقا، وهي تعد أفضية متميزة، وتشترك مع الأمكنة السابقة في كونها تستقبل وفودا معتبرة من البشر خلال فترة زمنية محددة؛ لقضاء شؤون حياتهم، كما تسنح للبعض بالالتقاء وتبادل أطراف الحديث. وقد حاولنا ضبط هذا النوع من الأمكنة في: فضاء السوق.

لعل أبرز خاصية يتميز بها السوق، تهافت الناس إليه وازدحامهم على ما يعرضه من سلع غذائية وشرائية. وقد اتخذ السوق هذه الصفة في روايتنا.

فالاكتظاظ والزحام يعطي دلالة البيع والشراء، وقد يكون هذا أمرا مألوفا بسوق معدّة أصلا للمغتربين، إضافة إلى الفوضى التي تملأ سماءها، مع اختلاط الروائح بالأسواق الشعبية خاصة، مما يعطيها نكهة الماضي وأصالته وبساطة الحياة وعفويتها الخاصة وطابعها المميز.

هي الخصيصات ذاتها التي تلتصق بالمواضع المحاذية لسوق ساروجا الشعبي بأرض دمشق في رواية" طوق الياسمين"، والتي تكشف بحق عن الحالة الاجتماعية المتدنية. يقول بطلها:« يا مدينة موجوعة القلب، تعج بالأطفال الفقراء ومسّاحي الأحذية وبيّاعي الفول وأقراص الفلافل التي تحترق في الزيوت النباتية العتيقة».(38)

يعتبر السوق البوابة الرئيسة التي تكفل أداء هذا الركن الهام في حياة الناس، إذ يعدُّ« ملاذا للتبضع بيعا وشراء، ومكانا للقيا والحوار الاجتماعي المتبادل بين الناس»(39)

هي المهمة الثانية التي يتكفل بها هذا المكان المفتوح في الرواية موضوع الدراسة، كالسوق الشعبية للصناعات الحرفية التي تذكر راويها بلحظات السعادة والرومانسية فمن على أرضه اشترى أجمل صفيحة من ذهب، نقش عليها اسم" مريم".(40)

2- 3- المقبرة:

المقبرة مكان العبرة والاتعاظ، هو النهاية الحتمية التي ينتهي عندها المرء، بعد رحلة حياتية طويلة مليئة بالمسرات والأحزان.(41)

ولقد كان للمقبرة أعظم دور في رواية" طوق الياسمين"، فمن على أرضها اطّلع القارئ على تفاصيل أحداث قصتها المتخيلة. وقد كان أول كلام افتتحت به الرواية الثانية قول الراوي- البطل:« سيلفيا؟

هي هي لم تتغير كثيرا. كانت واقفة على القبور المنسية(..) جورج أخوها، عندما سألته عنها البارحة أخبرني بطقسها الأسبوعي وأخبرها بوجودي في هذه المدينة التي شهدت انطفاء الذين نحبهم ونصر على ألاّ ننساهم رغم العزاءات الفاشلة ورغم غوايات الدنيا»(42).

ونحن نقف على أرض المقبرة لا نتذكر إلاّ« أناسا كانوا يعيشون معنا ويرافقوننا

في حياتنا وأنهم غادرونا لحياة أخرى تاركين لنا ذكرياتهم وأهليهم وما يذكرنا بهم، فبذكراهم تتفتق القريحة، وتجول النفس باحثة عن عاطر كلمات الأسى والحزن، لتعبر عن صبرها وسلوانها بما فقدت»[43]

قد لا تكون المقبرة موضع كلام بقدر ما هي مكان سكوت وتأمل وتألم لفقد الأحبة. هي" مريم" تقف في أول القائمة، وتطل ضمن الصفحة الأولى من الرواية. يقول الراوي:« مريم؟

بقايا الأبجدية المستحيلة، هل تدرين؟

بعد عشرين سنة لم أفعل شيئا مهما سوى البحث عنك. أعود إلى هذه المقبرة التي صارت اليوم وسط المدينة بعد امتداد العمران بشكل جنوني إليها»[44]

الراوي و" مريم" بطلا القصة، وهما المحركان الرئيسان لأحداثهما، مع ما يتخللها من تفصيلات أخرى، أخذ فيها" عيد عشاب" و" سيلفيا" دورا جليلا خلالها. وقصة الأربعة متشابهة، حب مستحيل انتهى بفجيعة، فقد ماتت" مريم" في النهاية، وتركت البطل وحيدا ومطالبا بحبها وتحمل غيابها، كما فارق" عيد عشاب" الحياة تاركا" سيلفيا" تعيش طقسها الأسبوعي وسط المقبرة عينها التي دُفنت بها" مريم". يقول الراوي:« كل صباح يوم جمعة تأتي سيلفيا إلى هذا المكان(..) تقف قليلا على قبر مريم وسارة الذي زينته بالنرجس وشجيرات الياسمين، لتقضي بعد ذلك بقية وقت الزيارة وهي تدور حول قبر عيد عشاب(..) وتمضي صبيحة يوم الأحد على قبر والدها» [45]

تتميز هذه المقبرة بوقوعها بأرض الغربة(دمشق)، وقد لعبت دور باعث الذكرى الحزينة في النفس، ومحرك لوعة الفراق بين القلوب العاشقة خاصة، والتي لم تتمكن من إكمال سعادتها بفعل ما تفرضه الحياة القاسية. فكان القبر مكان الغربة الثانية، بعد الذي كابدته الشخصية من غربة أولى في حياتها.

المقبرة مدينة الأموات، لا يمكن أن تكون إلاّ مبعث الذكريات الحزينة، مع ما قد يشوبها في أحيان كثيرة من تفصيلات سعيدة مبهجة. وقد يكون خلو المكان مساعدا على بعثها. يقول الراوي:« الضباب يزداد كثافة. الصمت المطلق(..) لا أحد غيرنا في المقبرة»[46]

لقد كان السكون المطبق على مساحة المكان فرصة سانحة لانبثاق الذكريات من

مخبئها. لم يكن أحد بالمقبرة غير" سيلفيا" والبطل، موطن خالي وشواهد قبور حركت الآلام والمواجع القديمة.

المقبرة ذاك الخواء المخيف، وذاك الفراغ الموحش، سيكون مكانا للخلوة والتنفيس عما يعتور الذات من أشجان. من هنا سيرتبط اسمها دوما بحالات الأسى العميق، والحزن الدفين، ولا تذكر إلاّ بلحظات الفراق، وأنين العزلة، وغبن الوحدة. يقول الراوي:« لقد تواطأ البرد والوحدة على هذه المقبرة فزادت توحشا»(47)

تعود الذاكرة بالبطل إلى أرض الحاضر بعد فترات طويلة تقضيها بالماضي البعيد ويزيد ما يحيط أرض المقبرة(البرد- الوحدة- التوحش) من تزايد حالات الوحشة والعزلة الباردة التي لا تدفع إلاّ للارتماء في أحضان الماضي الدافئ ممثلا في انبثاق صورة الحبيبة" مريم"، التي تأخذ الشق الأكبر من قطع الماضي.

ويقول الراوي في موضع آخر:« المقابر أمكنة للخلوة وليست مدنا خالية.

من قال هذا الخواء؟

لا أحد غيري. المقابر مدن ممتلئة، أناسها لا يفكرون مثلنا ولكنهم يعيشون صمتهم بمزيد من العزلة والوحدة. آلامهم كبيرة وميئوس منها. عندما نمرض نحلم دائما بالعودة، عندما ننام نموت مؤقتا أو نموت قليلا، لكننا عندما نموت بالفعل فإلى الأبد»(48)

المقبرة مكان اللاعودة، وهي هنا رمز انقطاع الأمل في هذه الحياة القاسية، ويزيد الصمت المطبق عليها من وحشتها، ويتقاسم أهلها وحدتهم وعزلتهم ويأسهم، الصفات اللصيقة بمن يرتاد هذا المكان أيضا من الأحياء(البطل- سيلفيا).

يقول الراوي في إحدى المواضع:« أتساءل اليوم وسط هذا الخواء المخيف، هل بقي للسنوات معنى؟ لا أشعر الآن إلاّ بالحياة وهي تهرب مني كالعصافير الضالة. لقد ابتعدت الحياة وصار الموت قريبا»(49)

تظل المقبرة رمز الموت والاندثار والتلاشي والفناء، تسرق بسمة الحياة من الشفاه، وتثير الفزع والخوف في النفوس، هلع لا يوقفه إلاّ انهيال الذكريات وانفتاحها من جديد على وجه" مريم" الملائكي.

تحضر القبور في مواضع عدة من متن الرواية(50)، فقد كانت النهاية التي آل إليها أقرب الناس إلى قلب البطلة: والدتها، ووالدها، وأختها" خيرة"، وابنتها" سارة"، التي

لم تر النور إلاّ للحظات؛ إذ سرعان ما أشاحت بوجهها وأدارت ظهرها للحياة، لتختار المقبرة أنيسا دائما لها.

ويمكن أن نقول في الأخير: إن رواية" طوق الياسمين" سيرة ذاتية، وإضافة جميلة إلى رصيد الروائي واسيني الأعرج، وجرأة فنية تحسب لمصلحة الرواية العربية، حيث إنها تقدم صورة حية ودقيقة عن دمشق المدينة الحاضرة بحاراتها وأسواقها، وكل ما تزخر به من أمكنة رسمت بفنية بالغة، وجعلت المتلقي يقف متتبعا حركة أحداثها ويرتاد أمكنتها واحدة واحدة.

الهوامش:

(1) سمر روحي الفيصل، الرواية العربية البناء والرؤيا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د. ط)، 2003، ص 72.

(2) خالد حسين حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض،(د. ط)،(د. ت)، ص 84.

(3) ينظر: محمد عبد الواحد حجازي، الأطلال في الشعر العربي" دراسة جمالية"، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2002، ص 198.

(4) ينظر: حسين جمعة، البيئة الطبيعية في الشعر الجاهلي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج25، ع3، يناير– مارس، 1997، ص 264.

(5) مرشد أحمد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص 128.

(6) ينظر: إبراهيم عباس، الرواية المغاربية" تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي"، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط1، 2005، ص 219.

(7) ينظر: فهد حسين، المكان في الرواية البحرينية، فراديس للنشر والتوزيع، ط1، 2003، ص 80.

(8) ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي" الفضاء، الزمن، الشخصية"، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1990 ص 79.

(9) فهد حسين، المكان في الرواية البحرينية، ص 129.

(10) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 79.

(11) شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994، ص 51.

(12) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، 1995، مج2، ص 203.

(13) واسيني الأعرج، طوق الياسمين" رسائل في الشوق والصبابة والحنين"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2004، ص 246.

(14) المصدر نفسه، ص 22.

(15) المصدر نفسه، ص 112.

(*) ورد اسم هذا الحي في مواضع عدة. ينظر: المصدر نفسه، ص 20، 104، 105، 246، 285.

(16) الرواية، ص 203.

(17) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 82.

(18) أسماء شاهين، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص 81.

(19) ينظر: فهد حسين، المكان في الرواية البحرينية، ص 132.

(20) شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ص 65.

(21) الرواية، ص 109.

(22) شاعر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ص 71.

(23) الرواية، ص 78.

(24) المصدر نفسه، ص 90.

(25) المصدر نفسه، ص 151، 152.

(26) المصدر نفسه، ص 128.

(27) المصدر نفسه، ص 157.

(28) ينظر: المصدر نفسه، ص 78، 79، 85، 132، 133.

(29) المصدر نفسه، ص 91.

(30) المصدر نفسه، ص 92.

(31) المصدر نفسه، ص 81.

(32) المصدر نفسه، ص 54.

(33) ينظر: المصدر نفسه، ص 81.

(34) ينظر: المصدر نفسه، ص 202.

(35) ينظر: المصدر نفسه، ص 216، 217، 246.

(36) المصدر نفسه، ص 80.

(37) المصدر نفسه، ص 74.

(38) المصدر نفسه، ص 81.

(39) فهد حسين، المكان في الرواية البحرينية، ص 89.

(40) ينظر: الرواية، ص 237.

(41) ينظر: محمد عويد محمد ساير الطربولي، المكان في الشعر الأندلسي، ص 101.

(42) الرواية، ص 9.

(43) محمد عويد محمد ساير الطربولي، المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي 484 هـ– 897 هـ"، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2005، ص 101.

(44) الرواية، ص 9.

(45) المصدر نفسه، ص 10.

(46) المصدر نفسه، ص 14، 15.

(47) المصدر نفسه، ص 19.

(48) المصدر نفسه، ص 83.

(49) المصدر نفسه، ص 151.

(50) ينظر: المصدر نفسه، ص 11، 41، 62، 67.